الفصل التاسع عشر

قالت نفيسة لصديقتها زبيدة وهي تواسيها بين نوحتين، حين انقطع فجأة تعديد المعددة، وسكت المأتم ودارت عليهن قهوة يشربنها في صمت عميق ودموع منها ما لا يزال يسَّاقط قطرات متقطعة، ومنها ما لا يزال ينهل وابلًا غزيرًا، ومنها ما يريد أن يجف لولا قطرة تمده بين حين وحين — قالت نفيسة لصديقتها زبيدة هامسة كأنما تسر إليها شيئًا: لو تعلمين أني لا أحزن على فقد أُمِّي بمقدار ما أحزن على دفنها في هذه المدينة من وراء النهر بعيدة عن أبي وأخويَّ، أولئك الذين دُفنوا في القاهرة، فهم لم يفترقوا في الحياة قط إلا هذه الأسفار التي كان يعمد إليها أبي لتجارته، وكانت أمي إذا حدثته عن كثرة هذه الأسفار وما تقتضيه من فراق، سمعته يقول لها في أناة: إنما نحن في هذه الدار على سفر، وسيكون بيننا جوار متصل في الدار الآخرة إن شاء الله لا تَشكين معه بينًا ولا فراقًا.

قالت زبيدة: وما يحزنك من ذلك؟ لقد التقيا منذ يومين وهما يسعدان الآن بهذا الجوار المتصل الذي طالما تمنياه.

قالت نفيسة وهي تكفكف عبرة أخذت تنهل: قد التقيا! وأنَّى يكون لهما اللقاء! بل أنَّى يكون لهما التزاور وأحدهما في القاهرة والأخرى في هذه المدينة من وراء النهر، والأمد بينهما بعيد!

قالت زبيدة: قد افترق جسماهما، رقد أحدهما في القاهرة، ورقد الآخر هنا، ولكن روحيهما قد التقيا في رضوان الله؛ حتى إذا كان يوم القيامة التقى الروحان والجسمان جميعًا في الجنة، بذلك حدثنا شيوخنا، وبذلك يحدثني سليم كلما ذكرنا الموت، وما أكثر ما نذكره!